

الإنسان والوعي

الوعي هو شعور إنساني بأن صاحبه يفهم الأمور التي تحيط بحياته كما يجب أن تُفهم؛ الأمر الذي يقود الإنسان الواعي إلى التصرف بعقلانية حفاظاً على مصالحه الخاصة وخدمة لما يهيمه من قضايا إنسانية عامة. إن قيام بعض الناس بتشكيل جمعيات أو جماعات أو أحزاب يعكس التقاء بعض الناس حول قضايا مشتركة تهمهم وتدفعهم نحو العمل بشكل جماعي. فكل عضو في التجمع المعني يكون على وعي بما يجمعه مع الآخرين من قضايا ومصالح. لذلك حين نتكلم عن طبقة متوسطة أو نخبة سياسية أو عصابة، يكون كلامنا عن تجمع من الناس لدى أعضائه وعي بأن نظرته للأمور تختلف عن نظرة غيرهم، وأن ما يعنيه من قضايا ومصالح يختلف عن ما يعني غيرهم من أمور مماثلة؛ وهذا يقود أعضاء التجمع الواحد إلى التصرف كمجموعة حفاظاً على مصالحهم ومواقفهم وأسرارهم المشتركة.

يولد كل إنسان ولديه وعي بدائي أساسه غريزة حب البقاء التي تحتاج لطعام وشراب وأمن، وغريزة جنسية للتكاثر، وأخرى للتمتع بالحياة من خلال التفاعل مع غيره من الناس. وهذا يتطلب الانتماء لمجموعة من الناس، وتكوين فئات اجتماعية على أسس ثقافية أو طائفية أو دينية أو عقائدية أو مصلحة، وتشكيل مجتمعات ودول. لكن نظم التعليم والتجارب الحياتية والحاجة للتعايش مع الآخر تقوم عادة بتهديب غرائز الإنسان ومساعدته على تشكيل وعي يتجاوز غريزة حب الذات والسيطرة على الآخر إلى حب الطبيعة، والاستمتاع بالجمال. وهذا من شأنه أن يدفع الإنسان إلى إدراك قيمة الحياة ومعنى الصداقة وأهمية التعليم والعمل والإنتاج، ومحاولة استكشاف ما في الإنسان والكون من أشياء وأسرار وجماليات لا يعرفها.

إن قيام الإنسان بمتابعة ما يجري في عالمه الصغير والكبير من تطورات، والتفكير في أسبابها وتبعاتها يجعل بإمكانه أن يتنبأ بما يُحتمل أن يقع من أحداث في المستقبل والتخطيط بناء على ذلك من أجل مستقبل أفضل له ولغيره من البشر. فكلما زادت معارف الإنسان العلمية، ونمت لديه غريزة حب استطلاع كونية، وعاش تجارب حياتية مختلفة، واطلع على ثقافات متنوعة كلما زاد وعيه وتعمق احساسه بإنسانيته. الوعي إذًا جزء من الإنسان، ومكون أساسي من مكوناته البيولوجية والعقلية. لذلك لا يوجد إنسان بلا وعي، ما يجعل كل إنسان يملك درجة من الوعي تعكس كمية ونوعية ما حصل عليه من تعليم وتربية، وما عاشه من تجارب حياتية، وما واجهه في حياته من تحديات، وما يتطلع إليه من طموحات.

يتجه الوعي أحياناً إلى التركيز على المجال الحياتي العام، ما يقود صاحبه إلى تكوين ضمير ذا اهتمام خاص بقضايا الحريات العامة والحال الإنساني وحال البيئة. أما من يركز وعيه على مجالات خاصة،

فيكون من الصعب عليه أن يلتزم بقضايا لا تعود عليه بالنفع. وهذا يعني أن هناك تباين كبير في درجات الوعي، ونوعية الوعي وسلامته، وبالتالي في نوع الضمير ودوره في حياة الفرد والمجتمع.

ولما كان الوعي جزء من الإنسان، فإن تربية الفرد ونضوج عقله ومنطلقاته الفكرية تؤثر في نوعية ودرجة وعيه. فالمرأة الجميلة التي يكون لديها وعي بجمالها وقدرة على إدراك قيمة ما لديها من جمال، تتجه في العادة إلى تكوين فكرة عما يمكن لها أن تفعل بجمالها. هناك نساء توظف ما لديها من جمال وإثارة وحيوية لأغراض جنسية بحتة، وهناك من توظفه لفرض احترامها على الرجل وتشجيعه على تذوق الجمال وتقديره. وهناك من النساء من تعرف قيمة جمالها وتخاف عليه من أن يخدشه أحد لدرجة تدفعها لحرمان نفسها من تجربة الحب، وحتى الزواج أحياناً. إن ضعف الوعي كثيراً ما يقود إلى الوقوع في أخطاء كبيرة، وقد يقود إلى الانحراف واللامبالاة، وبالتالي إضاعة الوقت والعديد من الفرص.

www.yazour.com

د. محمد ربيع